تفعيل الغالبية
أساس مشروع تجديد حضاري إسلامي

ـ 1 ـ

لأكثر من قرن من الزمان يشغل الاحتلال الغربي الحديث: الأوروبي ثم الصهيوني ثم الأمريكي جهود العرب والمسلمين، يشغلهم عن التفكير في قضاياهم الداخلية بحرية وإرادة واستقلال، ويستنزف قواهم المادية والمعنوية، ويصرف معظم إمكانياتهم عن النهضة الصحيحة والتقدم والازدهار إلىٰ المقاومة والتحرر والاستقلال، ويتساءل الأحرار منهم عن الأسباب الحقيقة وراء كل هذا الاستهداف للأمة العربية والإسلامية، وبالأخص عن مغزىٰ القوىٰ الأوروبية قديماً وحديثاً قصد هذه المنطقة وأهلها بالعدوان والاحتلال، وقبل أن يوجد مفهوم «الحرب علىٰ الإرهاب» بعقود وقرون، ويتساءلون عن سبل التحرر منه اليوم أكثر مما مضىٰ.

وقد خالط كل نوع من أنواع الاحتلال المذكورة ملابسات ومشاكل وأزمات حالت دون وصول العرب والمسلمين إلىٰ الخلاص منه كلياً، بالرغم من محاولاتهم التحررية الكثيرة، فما هو السبب وراء ذلك؟

أهي الشعوب العربية والإسلامية التي تتقاعس عن واجبها في التحرر من الاحتلال كاملاً؟

أم هي النخب السياسية التي تتعاون مع الاحتلال والاستعمار؟

أم هي النخب الفكرية التي تتداول أفكاراً نهضوية بعيدة عن أفهام الناس ومشاكلهم اليومية ؟ فتمتنع تلك الجماهير عن التجاوب معها، أو لأنها لا تثق بها، أو فاقدة للإبداع[1].

---

(1) انظر: إشكاليات الفكر العربي المعاصر، الدكتور محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، 1990م، ص 55.

أم أن ما تولد في نفوس الناس من القنوط واليأس من ضعف وجود المخلصين الصادقين، الذين يقاتل من ورائهم ويتقىٰ بهم، يمنعهم عن المراهنة علىٰ قادة آخرين ؟

— 2 —

إن نتائج حروب الاستقلال كانت مؤسفة وحزينة أمام ما بذلته قوىٰ المقاومة والتحرير من تضحيات كبيرة في القرن الماضي، مما ولد حالة من اليأس في مشاعر العامة ومواقفها، ففي مرحلة ما تحول الاحتلال الأوروبي للمنطقة العربية والإسلامية إلىٰ استعمار، وتحول الاستعمار إلىٰ تجزئة سياسية أطلق عليها اسم الدول المستقلة إما عربية أو إسلامية، ومنحت كل واحدة منها استقلالاً هشاً وضعيفاً وتحت وصاية معلنة أو غير معلنة، بالرغم مما بذل من تضحيات وشهداء ودماء في معارك التحرير والوحدة، وكانت الفاجعة أن حروب التحرير صنعت نخباً متسلطة في الحكم من الأسر العائلية المتغلبة أو الأسر العسكرية الثائرة، المتمسكة بمكاسبها الشخصية والأسرية والحزبية.

وتحولت الهجرة اليهودية بعد الثورات الفلسطينية الأولىٰ في النصف الأول من القرن العشرين الماضي إلىٰ استيطان، وبعد تدخل الدول العربية في حرب عام 1948م، تحول الاستيطان إلىٰ دولة يهودية تسمىٰ (إسرائيل)، وبعد حروب متواصلة معها تحولت "إسرائيل" من دولة محتلة ومعادية إلىٰ دولة صديقة، وهكذا شاهد المواطن العربي والمسلم نجاح المشروع الأوروبي ونجاح المشروع الصهيوني وفشل المشاريع العربية والإسلامية، وأن المشروع اليهودي الصهيوني استطاع النجاح علىٰ أرض الواقع وبقي مواصلاً نجاحه مرحلة بعد مرحلة، بينما شاهد مشاريع العرب والمسلمين تهبط من نكبة إلىٰ نكسة، ومن ادعاء إلىٰ كذب، ومن غلبة إلىٰ هزيمة، وهو مندهش ومذهول ويتساءل لماذا ينجح العدو في مشاريعه؟ ولماذا يفشل العرب والمسلمون في مشاريعهم؟ وما هو أثر ذلك علىٰ نفوس الأبناء والأحفاد والأجيال القادمة؟

— 3 —

إن الأجيال العربية والمسلمة الجديدة هي صاحبة الشأن في معالجة الضعف والتخلف الذي ورثته عن الأجيال السابقة مهما كان مؤلماً وقاسياً وكبيراً، وبالرغم من محاولات عزل الأجيال الجديدة عما حل بأمتها من هزائم وتخلف وإضعاف من الداخل والخارج بطرق شتىٰ، إلَّا أنها تدرك أنها أمام تحديات عظيمة منها: تحدي الوجود والبقاء أمة قوية مستقلة، وتحدي الصمود والمقاومة الاجتهادية والجهادية، وتحدي التخطيط والبناء للحاضر، وتحدي الاستبصار والاستشراف للمستقبل.

وتدرك أن محاولات عزلها عن قضاياها الأساسية لن تنجح مهما طالت، لأن الأمم الحية لا تذوب ولا تموت ما وجد فيها أبناء مخلصون من العلماء والفلاسفة والمفكرين والمجتهدين، وطالما وجد فيها شباب مجاهدون بأموالهم وأنفسهم، وهم يدافعون عن حقوقهم الإنسانية والمدنية والسياسية مثل باقي شعوب العالم.

وتدرك أن مشاهد الإذلال التي مارسها الاحتلال والاستعمار الأوروبي في بدايات القرن العشرين، ومشاهد الإذلال التي مارسها ويمارسها الاحتلال الصهيوني منذ منتصف القرن العشرين الماضي وبعده، ومشاهد الإذلال التي يمارسها الاحتلال الأمريكي في البلاد العربية والإسلامية المحتلة وفي سجونها تحديداً، لا ولن توهن الأمة عن القيام بواجباتها الاجتهادية المعنوية تجاه نفسها في النهضة والتغيير، واتجاه الإنسانية جمعاء في دعوتها إلىٰ الهدىٰ والخلاص الذي يبشر به الإسلام ويدعو إليه القرآن الكريم.

— 4 —

ومنذ مطلع القرن الخامس عشر الهجري تمكن الفكر العربي والإسلامي من الوقوف علىٰ أعتاب النهضة الصحيحة، بإعادة الاجتهاد العربي الإسلامي ليأخذ دوره الفاعل في تقرير مستقبل هذه الأمة، تحت عناوين متعددة منها الصحوة الإسلامية، أو اليقظة الإسلامية أو غيرها، وبذلك يمكن القول بأن الضعف الفكري الذي وقع علىٰ المنطقة العربية

والإسلامية قد قارب علىٰ الانتهاء بإذن الله، فقد تمكن العلماء والمفكرون والمجتهدون من تثبيت ثقة الأمة بنفسها وبدينها، فكرياً وعقلياً وعلميا وسياسياً.

أي أن الضعف الذي تعانيه الأمة اليوم لم يعد في فكرها ولا في مفكريها، بالرغم مما شاب قلة منهم في القرن الماضي من التشريق والتغريب، وإنما الضعف يتركز في أمرين هما:

أولاً: الضعف في تنظيم تعدد فكرها وتنوع اجتهاداتها، لأنه إن لم يقم علىٰ شرعية الاختلاف بين المسلمين في الاجتهاد الفقهي والعقدي والسياسي، فإنه لن يتواصل البناء الجديد كما ينبغي قوة ومنعة وشدة، وسوف يؤدي كما حصل في الماضي والحاضر القريب إلىٰ سوء إدارة الحوارات بينها وإلىٰ الصراع والتنازع بينها، فتكون قد نكثت غزلها بعد قوة أنكاثاً، وهو ما يعالج من خلال تفعيل شرعية الاختلاف وزوال كل أوجه الاستبداد، وبالأخص الاستبداد الفكري.

ثانياً: وهو لا يقل خطورة عن سابقه، وهو الضعف في المشاركة الجماهيرية في مشاريع النهضة، وتوفير شروط نجاحها، أي عدم تفاعل قطاع كبير من العرب والمسلمين مع المشاريع النهضوية الفكرية الجديدة، وضعف المشاركة في الاجتهادات الفكرية المجددة، سواء من الذين يتداولون فكراً إسلامياً موروثاً، عن طريق المحافظة علىٰ المدارس الفقهية والعقدية التاريخية، أو من وقعوا في بدعة وفتنة المذهبية المغلقة من الأحزاب العربية والإسلامية المعاصرة اسماً وحضوراً ولكنها تنتمي في أعماق نفسها إلىٰ فرق إسلامية تاريخية زالت أسباب وجودها.

أي أن قطاعاً كبيراً منهم لا زال يتداول الفكر من مدارسه ومنابعه التاريخية وليس علىٰ أساس الاجتهاد الجديد والتفكير بالتحديات الحقيقية المعاصرة، أي أنه وبالرغم من قيام عدد كبير من المفكرين العرب والمسلمين بالدعوة إلىٰ النهضة، وضرورة مواجهة الضعف الداخلي والهزيمة الخارجية، إلَّا أن التجاوب الشعبي الواعي لم يكن قوياً ولا كبيراً، لا في الماضي القريب ولا في الحاضر، ولم يظهر التجاوب مع الأحداث كبيراً إلَّا إذا كانت المواجهة من الدولة التي يعيشون فيها، في محاربة المحتل في أيامه الأولىٰ، أو في مقاومته كلما سنحت الفرصة كما حصل مع الاحتلال الأوروبي سابقاً والاحتلال الأمريكي حديثاً.

وإذا غاب عن كثير من الناس كيف تحول الاحتلال إلىٰ استعمار ثم إلىٰ دولة صديقة وحليفة مع المستقل عنه في الماضي القريب مع الأوروبيين، فإن مشهد الاحتلال الأمريكي أمام أعينهم اليوم، فمن كان عدواً بالأمس وتعدُّله العدة لمحاربته وقتاله، يتحول إلىٰ حليف وصديق من الشعب العربي والمسلم نفسيهما، وكأن هذه الشعوب مسلوبة الإرادة والتفكير والاختيار وتقرير المصير، وإرادتها أسيرة السلطان الحاكم، ولو كان أجنبياً، فكيف إذا كان وطنياً متجبراً أو قومياً مستبداً، أو ابنا أو أخاً مقدساً أو بطلاً مزيفاً.

— 5 —

هذه الحالة تؤكد أن هناك نقاط ضعف في تكوين العقل العربي الحالي، وأن هناك نقاط ضعف في تكوين العقل الإسلامي الحالي، ونقاط الضعف هذه تحتاج إلىٰ تحليل يعرف الأسباب وعلاج يعرف الدواء الشافي والكافي، ولعل من أهم ما تعاني منه الغالبية المسلمة هو الضعف الثقافي في حقوقها الإنسانية والفقهية والعقدية والاجتماعية والسياسية، وهو ما يجعلها تسكت عما يحل بها ولو كان احتلالاً، وتقبل ما يعرض عليها من أنظمة ولو كانت غير شرعية وظالمة، وتخضع لكل ما يمارس عليها من استبداد.

هذه النفسية ليست حالات فردية وإلَّا لما أثرت علىٰ المسار العام للأمة العربية والإسلامية، وإنما هي حالة عامة عند المسلمين، وتمثل غالبية صامتة ساكنة ومحايدة، لا تتأثر بالأحداث الجسام التي تقع عليها، وإذا ما تأثرت لساعات أو لأيام بسبب حرب كبرىٰ تحل بها، أو صاعقة تقضي علىٰ شيء من قوتها، سرعان ما عادت إلىٰ ما كانت عليه في عيشها قبل المصيبة والحرب التي حلت بها، بل وكيفت نفسها لتتعايش معها، فكيف تكونت هذه الغالبية المحايدة وما هي عقيدتها؟

وهل هي بحيادها هذا تمثل القابلية للاحتلال والاستعمار والاستبداد بين العرب والمسلمين، وهل هي بعقليتها هذه تمثل أخطر ما يدمر الحاضر العربي والإسلامي، وهل هي بثقافتها الساكنة أخطر ما يهدد مستقبلهم أكثر فأكثر، إذا كان الأمر كذلك فما الذي يجب عمله؟

— 6 —

إذا كان الأمر كذلك فإن ما يجب أن يشغل جهود المفكرين المستنيرين هو التفكير في هذه الغالبية المحايدة من العرب والمسلمين، والتفكير في كيفية تحريكها لتحس بقضاياها وتتفاعل معها التفاعل الصحيح والمؤثر، ولا بد أن تبقىٰ هذه الغالبية المحايدة بثقلها الشعبي هي ما يشغل المفكرين الأحرار، مثل تفكيرهم بالخطر الحقيقي الذي يهدد الأمة ومستقبلها سواء بسواء، وأن لا يركنوا إلىٰ تفاعل القلة مع الأحداث أو مع مشاريع التغيير والنهضة، لأن تفاعلها مع الأحداث بعفوية أو بحمية أو عصبية هو تفاعل متسرع وردة فعل لما يقع عليها من آلام ومصائب وقتل وتشريد هنا وهناك، من هذا المحتل أو ذاك.

واحتراماً للحقيقة نقول: إن لهذه الغالبية المحايدة اجتهادها، سواء كان عفوياً أو ردة فعل لمصائب الماضي، أو غيرها، ولكن تجاهل الغالبية المحايدة في أي مشروع نهضوي ليس بالأمر الممكن ولا المقبول، لأنها موجودة في كل قطر وبلد عربي وإسلامي، وبعد استقرار التجزئة القطرية الحالية بفعل الهيمنة والمنظمات الإقليمية والدولية، أصبح كل طرف أو دولة منها معنياً أولاً بما به من مصيبة، فرح أو حزين، ويدعي كل متزعم لمصيبة من مصائب العرب والمسلمين أنه صاحب قضيته وأنه هو الذي يمثل أهلها وحلها وفكرها وحاضرها ومستقبلها، ولو لم يوكله أحد من أهلها، فضلاً عن أن يكون موكلاً من معظمهم، ومع ذلك فإن الغالبية العظمىٰ من الناس تشاهد ما يجري، وكأن مسؤوليتها تنتهي عند حد المشاهدة أو الألم أو الحسرة.

— 7 —

إن كل الخوف أن تكون هذه الغالبية المحايدة هي الحاملة لجرثومة القابلية للاحتلال، والحاملة لجرثومة القابلية للاستعمار، والحاملة لجرثومة القابلية للاستبداد، حتىٰ وإن لم تبد عليها أعراض المرض في التشخيص الظاهري، وأولىٰ هذه الجراثيم وأخطرها هي القابلية للاستبداد الذاتي، والذي يتربىٰ الأبناء عليه في الأسرة والمدرسة والمسجد والشارع والمصنع والسوق وفي كل أمر وفي كل مكان، هذه النوعية من الناس لا تملك حق التفكير في مقاومة

الاحتلال الخارجي طالما هي لا تملك حق التفكير في ذاتها بالصفة الإنسانية أولاً، وهذه النوعية من الناس لا تسعىٰ في مقاومة الاستعمار السياسي طالما هي لا تفكر في الاجتهاد السياسي أولاً، وهذه النوعية من الناس لا تفكر في منابذته فكرياً طالما هي لا تملك حق اختيار دينها وعقيدتها بحرية تامة.

إن الخطورة الحقيقة هي في بقاء هذه الفئة الكبيرة اجتماعياً مهملة من قبل المفكرين، والظن بأنه يمكن قيام نهضة قوية من غير مشاركتها الفعلية في تقديم اجتهادها الجديد، ومشاركتها الحقيقية في بناء ذاتها معرفياً وعقلياً وعلمياً، علىٰ أساس الحق الكامل في العبادة العلمية وشرعية الاختلاف في ترتيب الأولويات العلمية والعملية، بل لابد من دعوتها لتشارك في أخذ وتحمل حقوقها الإنسانية والإسلامية، فكرياً واجتماعياً وسياسياً وفي كل المجالات، وعلىٰ أساس التفكير الإنساني أولاً والاجتهاد الإسلامي الجديد ثانياً.

— 8 —

إذن الجهود المطلوبة هي في توفير الإمكانيات التي تفعل الغالبية المحايدة لتشارك في فهم عصرها ودورها فيه، وفي فهم دينها علىٰ القيم التي تجعل من حياتها هدىً للناس كافة، وعدم الاكتفاء عند حدود التعاطف مع المصائب والحروب، وإذا كان من دروس من المرحلة السابقة، فهي أن الخطاب العاطفي أضعف الخطابات علىٰ البناء الصحيح، وأن الخطاب الديني التراثي لم يستطع تحريك هذه الغالبية المحايدة، لأنها تحمل جرثومة القابلية للاستبداد الذاتي، وأن التفعيل الممكن هو تجديد العبادة العلمية لكل المسلمين، ونشر قيم القراءة العلمية الحرة بين طلبة العلم والمدارس والجامعات، وبالأخص طلبة كليات العلوم الإنسانية والشرعية والعلمية.

ومرة أخرىٰ نقول: إن النفسية الاجتماعية التي تتقبل الاستبداد الذاتي بكل أشكاله، تحمل بذور قابليتها للاستبداد والاحتلال والاستعمار الخارجي بكل تأكيد، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرىٰ وعلىٰ أساس شرعية الاختلاف في العلم والعمل بين المجتهدين، فإن ما لابد من أن يتقبله العرب والمسلمون هو أن يربوا أنفسهم علىٰ تحمل الاختلافات الفكرية، وأن تختلف

الاجتهادات في ترتيب أولويات مقاومة الاستبداد الداخلي أو الخارجي، وبالأخص والمسلمون يعانون اليوم من الاحتلال المباشر والاستعمار والاستبداد الخارجي، بكل أشكاله، ولا يحسم أمر الأولوية إلَّا الغالبية الجماهيرية التي تزداد نحو اجتهاد أكثر من غيره.

والخطورة كل الخطورة أن تظن قلة من الناس أنها بالانقلاب العسكري أو السياسي تستطيع أن تحدث النهضة، وأنها ستدفع بالأغلبية بعد انقلابها إلىٰ المشاركة في بناء المجتمع الجديد، والدفاع عن الدولة القادمة، والتضحية من أجل بقائها وعدم زوالها، إن الخطورة في مثل هذا الاجتهاد، أنه تصور لم يقع في التاريخ الإنساني إطلاقاً، وإذا ما وقع فقد كان وراءه قوىٰ أخرىٰ حتىٰ لا تعرف فتنكشف مؤامرتها، ولم يقع في تاريخ النبوات والرسل إطلاقاً، وإنما الذي وقع في تاريخ النبوة الإسلامية دعوة الأغلبية في يثرب قبل الهجرة النبوية بثلاث سنوات إلىٰ صناعة المجتمع المدني الجديد، فإذا ما صنعت الأغلبية المسلمة المجتمع المدني الجديد دعت النبي عليه الصلاة والسلام إلىٰ قيادة هذا المجتمع وطاعته[1].

أي أن الأغلبية في أي مجتمع هي صاحبة القرار في صناعة الدولة التي تريد، وإذا ما وجد في الواقع حالات مخالفة لرأي الأغلبية وقرارها فهي حالات شاذة وزائلة مهما طال عمرها، ودليل ذلك أنها مهما طالت فإنها فاقدة القدرة علىٰ بناء نفسها فكرياً واجتماعياً وسياسياً وحضارياً ودولياً، وعرضة للزوال في كل حين، أما مجتمع الأغلبية الدينية الاجتهادية فهو القادر بما يملك من قوىٰ فكرية اجتهادية حية وذخيرة معنوية علىٰ البناء والتطوير والتقدم والثبات والتغلب علىٰ كل الصعاب.

وكما أن الإسلام دين الأغلبية في البلاد العربية، فكذلك ينبغي أن يكون اجتهاد الأغلبية الفقهي والعقدي والسياسي الجديد، هو صانع النهضة القادمة، وهذا يتطلب الإيمان بشرعية الاختلاف بين الاجتهادات الإسلامية وتفعيل الغالبية المسلمة المجتهدة، التي تختار الاجتهاد الراجح في التعبير عن ذاتها وفكرها وعقلها وحضارتها المعاصرة الجديدة.

---

(1) انظر: تفصيل ذلك في فصل: الفصل بين الدعوة والمجتمع والدولة من هذا الكتاب.